الرواية الشعرية

بين شوقي وعزيز أباظة

كتب الدكتور أحمد بك زكي يوازن بين هاتين الروايتين فقال :

« وجلست إلى « قيس ولبنى » أقرؤه ساعتين حتى أتيت على آخره . أفتدري إلام شاقني ؟ إلى صنوه « مجنون ليلى » لشوقي بك . ومددت يـــدي فجررته من محبسه على رف الكتب . وأخذت أقرأ لشوقي ، فمـا أحسست أني انتقلت بعيداً . كان إحساسي إحساس من انتقل من منشستر إلى لندن ، أو من ليون إلى باريس ، أو من الاسكندرية إلى القاهرة. الناس هم الناس، واللسان هو اللسان ، وأسلوب العيش هو أسلوب العيش ، والمدنية هي المدنية ، وإنما في ظرف أكبر. فعزيز يترسم خطوات شوقي، وله في جزالة لفظه ما يعينه على أن يحاكيه فيقاربه ، ويقاربه كثيراً . وهـذه خير تحية يحيا بها شاعر في مصر أو في الشرق كله .

« كان هذا إحساسي . إلى أن بلغت إلى قول شوقي على لسان قيس . قيس ليلى . إذ بلغ وهو في سبيله إلى ليلى ، جبل التوباد ، ملعب صباهما ومرتع شبابهما . قال قيس ليلى :

جبل التوباد حيـاك الحيـا	وسقى الله صبانا ورعى
فيك ناغينـا الهوى من مهده	ورضعناه فكنت المرضعـا
وحدونا الشمس في مغربها	وبكرنا فسبقنا المطلعـا
وعلى سفحك عشنا زمناً	ورعينـا غنم الأهل معـــا
هـذه الربوة كانت ملعباً	لشبابينـا وكانت مرتعـا
كم بنينـا في حصاها أربعـاً	وانثنينا فمحونا الأربعـا
وخططنـا في نقـا الرمل فلم	تحفظ الريح ولا الرمل وعى

« الله ! الله !

لم تزل ليلى بعيني طفلة ... لم تزد عن أمس إلا أصبعا
ما لأحجارك صمّا كلما ... هاج بي الشوق أبت أن تسمعا
كلما جئتك راجعت الصبا ... فأبت أيامه أن ترجعا
قد يهون العمر إلا ساعة ... وتهون الأرض إلا موضعا

« الله ! الله ! مرة أخرى ، لهذا البيت الأخير .

« بلغت هذه القطعة ، فقلت : معيار المقارنة أن أجد مثلها لقيس لبنى، وبحثت فلم أجد .

« أم أنا عميت ؟ ربما ...

« أم أني نظرت في الكتابين نظرة القارىء العادي ، ومثل هذا الذي طلبت يحتاج لا إلى بصر قارىء مثلي عابر ، وإنما إلى بصيرة أديب مكين ؟ ربما أيضاً » .

* * *

ومع احترامي لهذا التواضع العلمي النبيل فيما كتبه الدكتور العالم الأديب . فاني أخشى أن تكون عاطفة «تقديس الموتى» ـ وهي عاطفة إنسانية عامة وعاطفة مصرية خاصة ـ قد غلبت في نفسه على حاسة الفن ، التي ألمحها في كل ما يكتبه !

وإلا فما يمكن أن يقرأ الانسان هاتين الروايتين في وقت واحد ، دون أن يحس بالفارق الهائل بين الحياة الحارة والصدق الطبيعي ، في « قيس ولبنى » ، وبين الموت البارد ، والتلفيق المتهافت في « مجنون ليلى » من ناحية رسم الشخصيات وإجراء الحوادث والعرض الفني . ولا بين الطلاقة والقدرة على الأداء في الرواية الأولى ، والاضطرار والتهافت في مواضع كثيرة من الرواية الثانية .

ويجب أن يلاحظ أنني أتحدث عن « الروايتين » لا عن « الشاعرين » فشوقي الشاعر قد يكون أكبر من عزيز أباظة الشاعر في مجموعها . ولكن

رواية « مجنون ليلى » أصغر بمـــا لا يقاس من رواية « قيس ولبنى » . أصغر من جميع الوجوه التي تقاس منها الرواية الشعرية .

والقطعة التي اقتبسها الدكتور زكي من « مجنون ليلى » قطعة عذبة النغمة جميلة التصوير ، وهناك قطعة أخرى أو قطعتان في الرواية من هذا النوع . ولكن الرواية وحدة كاملة تقاس بمجموعها : برسم الشخصيات ، وإجراء الحوادث ، وعـــرض المشاهد ، والتعبير القوي عن هذا كله في النهاية ، وقياس الروايتين على هذا النحو ، لا يدع مجالاً للشك في تقرير الحقيقة التي أسلفناها .

إن معظم الخطأ الذي قد نقع فيه عند الموازنة بين عمل شاعر كشوقي نال في زمانه شهرة عالية ؛ وعمل لأحد الأدباء المعاصرين . إنمـــا ينشأ من اعتمادنا على ما تحوي ذاكرتنا من ظنين سابق ؛ واطمئناننا إلى هذه الأوهام المقررة ؛ والاستغناء بذلك عن مراجعة الأثر الفني مراجعة جديدة .

ولكن الدكتور زكي بك يقول : إنه أعاد قراءة « مجنون ليلى » . وهـذا هو موضع العجب . فالأمر من الوضوح الحاسم ، بحيث لا يقع فيه التباس .

إن عمل شوقي بك في « مجنون ليلى » كان عملاً مشكوراً من الوجهه التاريخية في الأدب . وذلك لفتح هذا المجال ، ومحاولة نظم الرواية في اللغة العربيـة ـ وإن يكن غيره قد حاول قبله ولم يبلغ ما بلغه ـ وعند هذا الحد يقف تقـدير هـــذه الروايات التي أخرجها جميعاً ، و « مجنون ليلى » في أولها .

فأما حين تعرض هذه الروايات للتقدير الفني ، فانها تبدو عملاً بدائياً متهافتاً من جميع الوجوه .

وأول ما يلحظه الناقـد في « مجنون ليلى » هـو البرود والركود . فالمجنون — وهو المثل الأعلى لحرارة العاطفة ، وللجد فيها ذلك الجد المتلف — يصبح في يد شوقي طيفاً متهافتاً ، كأنه أحد شبان القـاهرة المترفـين الأطرياء اللطاف ! كل حرارة الحب عنده بكاء ودموع وإغماء . وذلك كل نصيبه من الجد في هذه العاطفة

المشوبة . بينما يلمح في « قيس ولبنى » حرارة العاشق ، وحركة الانسان ، وفحولة هذه العاطفة في نفسه المحبة المهتاجة .

إنك لا تلمح مرة واحدة في « مجنون ليلى » تلك الحرقة اللاعجة ، ولا تلك الثورة العاصفة . ولم تكن كل ميزة المجنون هي الحب المتهالك الذائب من الرقة والحنين ـ كما فهم شوقي وكما يفهم الكثيرون من الظرفاء المترفين الوادعين ـ إنما كانت هي الثورة المشبوبة والحرقة الموقدة ، والاضطرام العنيف .

لقد كان يحب ، ولم يكن « يتدلع » ! وكان هذا الحب يتعمقه ويهيجه ويشقيه ، وكان هذا الحب يقيمه ويقعده ويثير أعمق مشاعره ، ويهزه في الصميم ؛ ولم يكن الاغماء والنواح هو كل حظه من الحب المجنون !

استمع إليه فيما يروى له من شعر ، ثم استمع إليه فيما ينطقه به شوقي ، تجد المسافة شاسعة بين شعور وشعور :

استمع إليه يقول :

فيارب إذ صيرت ليلى هي المنى ... فزنّي بعينيها كما زنتها ليا
وإلا فبغضها إليّ وأهلها ... فاني بليلى قد لقيت الدواهيا

أو قوله :

كأن فؤادي في مخالب طائر ... إذا ذكرت ليلى يشد به قبضا
كأن فجاج الأرض حلقة خاتم ... عليّ فما تزداد طولا ولا عرضاً

هذه النغمة الجادة ، التي تشعرك « بالهول » في هذا الحب العنيف العميق ، لا تسمعها مرة واحدة في « مجنون ليلى » وذلك هو المقياس الأول في صحة رسم شخصية المجنون ، وتصوير عاطفته كانسان يحب حقيقة ، لا مترف يتظرف بالتهالك في الحب و « يذوب » حنيناً وإغماء كأن «الذوبان » هو وحده دلالة الحب الانساني العميق !

فاذا شئت هذه النغمة الجادة الصادقة العميقة ، فانك واجدها في « قيس ولبنى»

إن شوقي لم يعرف الحب ، وأغلب الظن أنه لم يعرف « الألم » والألم هو ذلك الزاد الالهي ، الذي يفجر عواطف الفنان ، وبدونه يصبح الفن بل تصبح الحياة كلها متعة رخية توحي باللطف والرقة ، ولكنها لاتوحي بالعمق والصدق . وما الحب وما الحياة بدون الألم الصادق العميق ؟

أما عرض المواقف والمشاهد ، فتبدو فيها السذاجة وقلة الحيلة ، في إثارة النظارة بالمشاهد الملفقة ، وذلك طبيعي ما دامت الحرارة الانسانية الطبيعية مفقودة .

وإلا ففيم هذا الاغماء الذي لايفيق منه المجنون حتى يعود إليه خمس مرات ! لقد أغمي على « قيس لبنى » مرتين . ولكن ذلك كان لمرض هدّه ولأزمات نفسية حقيقية تهد الكيان . أما المجنون ، فيبدو لنا متهالكاً متهافتاً منذ أول فصل في الرواية قبل أية أزمـة من الأزمات ، قبل أن تمنع منه ليلى وقبل أن يهدر دمه وقبل أن تتزوج سواه ، فكأنما هو « مستعد سلفاً » لهذا « الذوبان » الرقيق ، لأن هذه هي سمة الحب الوحيدة ، كما يتوهمها الرجل الظريف !

ومشهد وادي عبقر وشياطينه وحواره مع شيطانـه ، وكذلك مشهد الصبية الذين يتحاورون : فريق مع المجنون وفريق عليه . كلاهما حيلة من الحيل الرخيصة التي تنشئها « قلة الحيلة » للفت النظر ، حينما تقل الحرارة الطبيعية الصادقة !

وأعجب شيء هو ذلك الخصام بين رجال قيس ورجال ليلى ، وكأنه لايجري في الصحراء وما بها من رجولة وفتوة ، إنمـا يجري في « صالون » بين بعض المترفين الظرفاء ، ويا للاخفاق عندما أراد شوقي أن يقـلد شكسبير في يوليوس قيصر ، فيصور ثورة الجماهير واندفاعها من جانب إلى جانب ، متأثرة ببلاغة خطيب !

وموقف « ورد » زوج ليلى ذلك الموقف الطريّ المريب ! ألـكي يقول لنـا : إنه رجل كريم عطوف . لقد صور لنا «عزيز أباظة » ذلك الموقف نفسه أومايشبهه يقفه زوج لبنى فلم يمل به إلى هذه الطراوة المخنثة ، وهو يصور نبله وكرمه . ذلك أنه صوره « إنساناً » حياً ، لادمية من الدمى ،التي عرضها شوقي وسماها أشخاصاً .

وذلك في الحقيقة هو الفارق الأصيل بين الروايتين والمؤلفين وهو يلخص الفوارق كلها ، ويختصرها : الصدق والطبيعة ، والتلفيق والصنعة ، في كل موقف، وفي كل شخصية ، وفي كل عاطفة أو شعور .

ومن العجيب أن تخون شوقي في رواياته الشعرية أقوى خصائصه التي بهرت أهل زمانه ، وهي قوة الأداء ووضوح التنغيم . ففي مجنون ليلى اضطرارات في التعبير لاتجد لها مثالا واحداً في « قيس ولبنى » .

ففي بيت واحد كهذا :

لِمْ إذن يا هند من قيس ومما قال تبْرا

يضطر إلى تسكين الميم في « لِمَ » وتسهيل الهمزة في تبرأ .

ويطرد هذا التسهيل في مواضع شتى مثل (كيف تجرّا) أي تجرأ ، و (تهزا بنا) أي تهزأ ... الخ .

وتشاء تصبح « تشا » فقط اضطراراً للقافية في قوله :

وليلى تفيض على من تشا رضاها وتحرمه من تشا

و « مُنازل » تصبح « مُنازِ » فقط لضرورة الوزن في قوله :

« أنعم (منازِ) مساء نعمت سعد مساء »

وليلى تصبح (ليلَ) لنفس السبب في بيت ينطق به ثلاثة :

أوغل الليل فلنقم

بل رويداً واسمعي (ليلَ)

خلّ عني ودعني

ومظلوم هذا « الترخيم » الذي يسرف شوقي في استعماله كلما نادى واحتاج للحذف خضوعاً للضرورات النظمية !

وشيطان من وادي عبقر ممن يوحون بالشعر للشعراء يهبط ويهبط حتى يضع لا الناهية في موضع لا النافية لضعفه في النظم كقوله « لا أدر . تلك ضجة » !

وكثير من مثل هذه الاضطرارات التي يعانيها المبتدئون في النظم ، والتي